

أصبحت وسائل الإعلام ورسائلها جزءاً من نسيج المجتمع وحياته في كل مكان في عالمنا، وذات تأثير مباشر في التكوين الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي للمجتمع، وقادرة على إحداث تغيير في مسار الخيارات لهذه المجالات، وذلك فضلاً عن إمكانيتها تشكيل الوعي وتحديد مسار سلوك الأفراد والجماعة. فهذه الوسائل الإعلامية قدرة عجيبة على صناعة الرأي العام إلى حدّ " التلاعب بالعقول " حسب عبارة بورديو. فهي التي تحدّد الخيارات والأولويات ومن ثمّ تقوم بعملية سطو على العقول لتوجّهها أينما شاءت وكيفما أرادت. كما أنّ الصورة تحولت إلى سلطة رمزية وتأثيرية قادرة على التوجيه والتأثير سواء على الوعي الاجتماعي، أو في تشكيل اللاوعي الاجتماعي الذي يمثل بدوره سلطة على الوعي بدرجة أولى، ناهيك عن أنها منتج اجتماعي ومضمون تحدده خصوصيات اجتماعية وسياسية وثقافية، خاصة أن كل مضمون ضمناً يبدي ويبرز موقفاً ما في علاقة بمواقف أخرى مختلفة، تتجلى أهمية الصورة في حياة الأفراد والمجتمع من خلال طبيعة وطريقة عرضها، فالصورة تعتبر من المثيرات الحسية والعقلية والانفعالية للنفوس، فهي تؤثر في كيانهم واتجاهاتهم. ولذلك تؤدي الصورة دوراً مهماً ورئيسياً في بناء نموذج جديد ديمقراطي يراهن على مواكبة التغيرات والتطلّعات. وخاصة باعتبارها ذات طبيعة تفاعلية كوسيلة من وسائل الاتصال مع الأنظمة الأخرى الموجودة في المجتمع. فالصورة منظومة رمزية توحى بدلالات عدّة، وتحمل بين طياتها خطاباً دالاً، يتحدّد في دائرة العلاقات المتبادلة بين المنتج والقارئ وفي سياق الوضع المحيط بهذه العلاقات. إنّ الهيمنة الإعلامية على شتى تفاصيل الحياة باستخدام أرقى الآلات والتكنولوجيات وبتطويع علوم الإنسان والمجتمع، جعل المتنفّذين خلف الشاشات والصحف وغيرها من وسائل الاتصال تبحث عن كيفية توجيه الرأي العام بالصورة الموضبة والمنتقاة. حيث أصبحت الصورة الفوتوغرافية تشكل عنصراً مؤثراً وفاعلاً في الصحافة المكتوبة أيضاً. فالصورة تبقى لولب الخبر، يتمعن بها المتلقي ليخرج بانطباعات تجاري الحدث الموصوف في سياق الخبر. وكما تفعل الصور فعلها في الحرب والسلام، كذلك هي مؤثرة وفاعلة في العمل السياسي. وقد عزّز هذا العنصر خاصّة بعد أن تمّ إقحام وسائل الاتصال والإعلام واستخدامها في الميدان السياسي، بل أصبحت أحياناً (وسائل الاتصال) محدداً أساسياً ورئيسياً لشكل هذا الميدان ومكوّناته وحاضره ومستقبله. وصارت الصورة تعيد تركيب عقل المشاهد، وتضع كل الحواس في خدمة العين. العالم يعيش ثقافتها التي تنافس كل الثقافات الأخرى، بعد أن نفذ الإعلام المرئي إلى ذات المشاهد، وعمّم خصوصيته وقيمه ونظامه، فبات المشاهد أسير الصورة يقرأ بعيونه ما يكتب وما يصوّر بالعدسات. هنا يكمن الخوف من تحوّل هذا الذي يمكن أن يكون وسيلة لتحقيق الديمقراطية إلى وسيلة قمع رمزيّ وأداة هيمنة. وخاصّة إذا تحوّلت الصورة تحت سيطرة ذلك الإله الخفي الذي يسعى إلى التلاعب بالعقول والأفكار، وتشكيل وعي مغلوط واصطناعي مزيف، من خلال إخضاع الصورة إلى عمليات التصنيع والتشويه والتحريف. لقد عملت الصحافة وغيرها من وسائل الاتصال على أن تكون أداة تنوير وتغيير للوعي والواقع، لكنّها غدت بفعل هيمنة قوى المال ونخب المصالح، أداة تمرير لما يتطلبه السوق وعلاقات الربح أحياناً، وخطاباً أيديولوجياً أنطوائياً. ضيقاً أحياناً أخرى. ومن هنا وجب على الذين يتعاملون مع مادة الصورة، أن يناضلوا من أجل ألاّ تتحوّل من أداة رائعة للديمقراطية، إلى أداة للقمع والعنف الرمزي.